لحضرات الآباء الكرمليين. والدير المذكور قائم على صخر عظيم وهو يدعى لذلك دير الشير ومن حواليهِ الاشجار الممتدَّة الاغصان المتكاثفة الظلال. وليس في هذا الدير سوى راهب واحد وكل اليهِ رؤساؤهُ حراسة الدير والقيام بلوازمهِ وزراعة اراضيهِ المجاورة. وللدير معبد صغير جميل المنظر نُقر كلُّهُ في الصخر يقدَّم فيهِ الذبيحة الحد كهنة بشرّاي الموارنة. وفي هذا الدير قبر رجل شهير من اعيان الفرنسيين تألَّه فيهِ وانقطع الى عبادة الله اسمهُ دي شَسْتول (M^r de Chasteuil) جاء من جنوبي فرنسة سنة ١٦٣١ فعاش في لبنان عيشة النسَّاك وقضى حياتهُ بكلّ اعمال التقى والصلاح. وكان اكثر سكناهُ في مغارة قريبة من دير مار يعقوب في اهدن ثمَّ انتقل الى دير مار سركيس فيها ايضاً وبقي هناك حتى ارتقى صديقهُ السيد جرجس عميرة الى السدَّة البطريركيَّة فانتقل الى هذا الدير وسكنهُ الى ان رقد بالرب سنة ١٦٤٤ فذاع صيت قداستهِ في كل انحاء بلاد الشام (ستأتي البقية)

ليلة الاهوال

معرَّبة عن الافرنسية بقلم شاكر افندي ابي ناضر (تتمَّة)

وحينئذٍ سمع الفتى قائلاً يقول في جانبهِ: ان هذا الكلب آل على نفسهِ ألَّا يعضّ احداً منذ الآن

فصرخ الفتى: بحقّ الانسانية والمروّة أجرني ايها الرجل ممَّا دهاني

— لبَّيك يا غلام لا تخشَ امرًا فانَّ عكّازي هذا الذي اودى بالكلب يكسر اقحاف من اضروا لك سوءا

فنظر الفتى الى الرجل فاذا هو ذاك الكهل النقير ذو الساق الخشبي الذي أكرم عليهِ ببعض الدريهمات في صباح امسهِ. فتقدَّم اليهِ ولاذ بحقوهِ فكفَّن الكهل جاشهُ وقال لهُ: تجلَّد ايها الغلام وكن ثبت الجنان جريَّ الصدر

وفي تلك الساعة اقبل صاحب الفندق وخادمهُ غسبار ليُجهزا على الفتى وهما يحسبان ان الكلب كاد يفترسهُ. فما اشدّ ما كان اندهالهما اذ شاهدا الكلب مقتولاً ورجلاً آخر غريباً يكتنف الفتى ففكَّرا في الرجوع على الاعقاب غير ان غسبار احدق النظر

فرأى ان ذلك الرجل الغريب لم يكن الّا شيخًا ابيضّت لمّتهُ وضعفت همّتهُ. ثمّ تقرّب اليهِ وصاح بصاحب الفندق : لا تخفْ إنْ هذا الّا الصعلوك يعقوب انني عرفتهُ حقّ المعرفة فالويل لهُ فانّهُ هالك لا محالة وهذا جزاء كل من يتدخّل بما لا يعنيهِ من الامور

قال هذا وجرّد كلّ منهما سيفهُ وهجما على يعقوب

بيد انّ يعقوب لم يكن نسي لعب السيف الذي تعوّدهُ في حومة القتال فانهُ حمى نفسهُ بمكانهِ وردّ عنهُ بحذاقة غريبة ضربات هذين العدوّين الجريئين وذبّ عن الفتى المستجير الذي كانت خارت قواهُ لا يستطيع حراكًا وصاح بهما صيحة عظيمة وقال تبًا لكما ايّها اللصان الخبيثان فانّ حياتي بحياتكما ولا اموت حتى اذيقكما كأس الردى

ثمّ انبرى يضرب ذات اليمين وذات الشمال وكان عدوّاهُ يقحمان اليهِ احدهما من الوراء والآخر من الامام وهو لا يقوى على ان يدور على نفسهِ لانّ ساقهُ الخشبيّة كانت تمنعهُ عن ذلك فضايقاهُ وكاد يسقط عياء

وبينما كان يكافح هذا الكفاح اذا بفارس يزمّ جوادهُ ترآى بعيدًا وهو يجدّ السير نحو محلّ العراك

فصاح يعقوب ايها اللئيمان: ها انّ الدرك مقبل لقطع دابركما فاين الهرب واين المفرّ

فانخلّت عزائم اللصين عند ما سمعا ان الدرك يتعقّبهما فولّيا الادبار واركنا الى الفرار

فقال الكهل للفتى وقد دنا منهُ: أبشر فانك نجوت من الخطر العظيم الذي كان محدقًا بك واشكر الله على انك تلاقيت لي امس العازب. فانني اعلم بامر هؤلاء اللصوص وسوء احوالهم وقد خفتُ ان تكون بتّ في فندقهم فشفقتُ عليك. فأخبرني الان كيف اتفق لك ان دخلت هذا الكمين ووقعت في ايدي هؤلاء الاشرار المارقين. وما لي اراك لا تتبس ببنت شفة كانّ لا قوّة لك الّا في ساقيك تعمل بهما على الهرب في هذه السهول المتسعة

ففتح الفتى عينيهِ وهو على آخر رمق كأنهُ لم يصدّق بنجاتهِ فقال لهُ يعقوب: عدْ الى رُشدك وأفرخ عن روعك فاني لم اعهدك جبانًا ضعيف القلب فتُرى ما كنتَ فعلت لو كنت اسيرًا في مراكش كما كنتُ انا ؟

وفي اثناء ذلك مرَّ الفارس بهما فنظرا اليه فاذا هو راهب عائد من احدى القرى البعيدة كأنهُ دُعي اليها لعيادة مريض فيها

فقال لهُ الكهل: يا سيدي لا تتجاوز هذا الحدَّ من حرزك فانَّ اللصوص راصدة لك في هذا الخان تهجم عليك فتعطبك. ان هذا المكان لغشٌّ من اغشاش الشيطان

فوقف الراهب واعارهما اذنًا صاغية فقصَّ عليهِ جميع ما جرى لهما من اوَّلهِ الى الآخر

ثمَّ قال لهُ الفتى: اسرع واطلب لنا الشرط والدرك فان في الفندق رجلًا غريبًا كاملًا فاضلًا اذا ما تداركتهُ عنايةٌ مخصوصة فتك بهِ هؤلاء القتلة فتكًا ذريعًا

فقال الراهب: ومن هو ذلك الرجل الغريب؟

قال: انما هو كاتب سجلات في احدى القصبات المجاورة

— أصحيح انهُ كاتب سجلات؟ فهو اذن صديقي داود فيدارِ يدارِ الى انقاذهِ

فقال الفقير: مهلًا مهلًا فان لي رأيًا آخر. ان هذا الفتى قد احسن بقولهِ انَّهُ لا بُدَّ من استقدام الضابطة والدرك

فالاولى بك ايها الراهب ان تركض جوادك وتنقلب عائدًا الى القصبة وهناك تُطلع الحاكم على ما جرى

— فاجابهُ الراهب: اني ذاهب للحال

ثمَّ ضرب الجواد بسوطهِ فكرَّ هذا حتى غاب عن العيان ولبث بعدهُ الفتى وقد استولى عليهِ اليأس وقال: كيف تركتُ ذلك الصديق في ايدي هؤلاء اللصوص وأما كان الاولى بي ان ادعوهُ فيهرب معي. واذا كان بطش بهِ هؤلاء القتلة ألا اكون مؤاخذًا بدمهِ يوم الحساب

فتحرَّك قلب الكهل الفقير لما رآهُ في الفتى من الحزن الشديد والاسف الصادق على تركهِ صاحبهُ تحت ضرب السيف فقال: « لا تحزن يا اخي فاني واثق ان الله تعالى شملك واياهُ بعنايتهِ فتخلَّصك قبلهُ كي تسعى بنجاتهِ فاشكر الله على انهُ جمع بيننا في يوم امس وربط قلوبنا برباط الحب المتين وهذا يدل على انهُ لا بُدَّ للمرء من اصحاب في كل محلٍّ يستعين بهم عند وقوع البلوى ويبث لهم الشكوى

وانني وأيمُ الله خفتُ عليك من هؤلاء اللصوص. فقمت في هذه الليلة وغايتي ان اصل الى احدى القرى التي تبعد بعض المراحل من مدينة ليون حتى احضر احتفال

عيد يجري فيها غدًا فتناولتُ عصاي وتوكلت على المولى الرحمن وقمت اكدح في هـذا الليـل المدلهمّ . لانك تعلم اني لا اخشى امرًا وان لي قلبًا اشدّ من الصخر الاصمّ . ولم اتمالك ان حانت مني التفاتة نحو هذه الخربات اذ توهّمتُ انك تبيت فيها وخفت ان يلحق بك سوء وقد واصلت سيري حتى اصل وقت قيام الصـلاة واجتماع الناس لاتي أصيب حينئذٍ خيرًا من احسان المؤمنين كما اعتدتُ من زمن . ولي هناك اصحـاب يتحفونني بهدايا نفيسـة . وبينما كنت على هذه الحالة من السير واذا بصباح يتقدم نحوي كأن يد شيطان تحمله فلم اهتم بالامر ولم احتفل لهُ ولم يمرّ عليَّ الّا القليل حتى نظرتُك امامي متهورًا وقد اوشك الكلب ان يمزّقك بانيابهِ ولكن ضربة واحدة بعكّازي هذه جعلتهُ يعضّ التراب ولا يعود يُرعب ابناء السبيل

— حفظك الله ايها الرجل وجازاك خيرًا فانك انت الذي انقذتني من شرّ الهلاك ولو علمتُ امي بهذا الامر لكانت بذلت في سبيل شكرك النفس والنفيس

— قصّ ذلك عليَّ . ولكن اخبرني الآن كيف تأتّى لك ان تتملّص من هـذا الفندق المشئوم في هذه الليلة الهائلة فاني احب ان ازيد ما في جعبتي من الاخبار

فقام الفتى وقصّ عليهِ جميع ما جرى لهُ منذ دخولهِ الى الفندق الى ساعة نجـاتهِ . فتعجب الرجل غاية العجب لما ابداهُ الفتى من رباطة الجأش وعلوّ الهمّة

ثمّ التفت اليهِ وقال لهُ : انك لجدير بكلّ مدح وثناء ايهـا الفتى فان ما اقدمتَ عليهِ تحجم عنهُ الابطال ولو اصابني ما اصابك لتضعضعت عزائمي وها اني اراك ترتجف من البرد وما عندي سوى لبدي فالتحفْ بهِ يحيك من البرد قليلًا

قال ونزع لبدهُ والبسهُ اياهُ فقام الفتى يعتذر لديهِ ويشكر جميلهُ وما كان من الكهل في تلك الاثناء الّا ان عمد الى قوعة ملأى شرابًا فأتى بها وقدمها للفتى وطلب اليهِ ان يشرب منها فشرب وشرب الكهل بعدهُ فانتعشا واخذ هـذا يقصّ على الفتى قصةً اشبه بقصتهِ فقال :

ان احد اصحابي من الجنود كان متجوّلًا في بلاد اسبانيـة فاضطرّ يومًا في اثناء سياحتهِ ان يقضي ليلةً من الليـالي في منزل كمنزل البقّالين وادخلهُ صاحب المحلّ الى حجرة لم يكن فيهـا من الاثاث سوى صندوق كبير . فحدثتهُ نفسهُ ان يفتح الصندوق ليرى ما فيهِ ففعل فوجد فيهِ رجلًا مذبوحًا فعنـدها عرف ما ينتظرهُ من الويلات وان

الموت يرود حولهُ . فخطر لهُ خاطر أجراهُ للحال وهو انهُ نهض واخرج الذبيح من الصندوق ووضعهُ على الفراش الذي كان عازمًا ان ينام عليهِ ثمَّ القى نفسهُ في ذلك الصندوق وردَّ عليهِ غطاءهُ وليث ينتظر القدر المحتوم . ولمَّا قارب نصف الليل دخل صاحب ذلك النزل الحجرة وضرب الميت فزادهُ موتًا وقد كان في غنًى عن ان يضرب ثانيةً وصاحبنا في الصندوق يذوق سكرات المنيَّة لخوفهِ . ولمَّا كان الصباح حضر رجلان وحملا الصندوق وذهبا بهِ فاحسَّ ذلك الصديق انهُ على ظهر راحلة غير انهُ خفي عليهِ المحلّ الذي ينتهيان اليهِ في مسيرهما وما يكون من امرهِ بعدهُ وقد سمع احدهما يقول للآخر : « لا بأس ان نرميهُ في هذا الجبّ العميق » فقلقت نفسهُ من ذلك واضطرب فؤادهُ ولم يتمالك من كظم غيظهِ فضرب الغطاء فسقط ووثب على الارض وهو يصرخ فخالهُ حاملاهُ من أرواح الموتى او من الجان فاركنا الى الفرار لا يلويان على شيء . وهما يطلبان من الله ان يتوب عليهما فانهُ التوَّاب الرحيم

ولمَّا اتمَّ يعقوب قصَّتهُ التفت الى الفتى فرآهُ مشغول الفكر فسألهُ عمَّا يفتكر فاجابهُ انهُ فريسة الهواجس وانهُ خائف ان يلحق برفيقهِ داود اذًى واطرق حينًا ثمَّ قال : ارى الراهب طال امرهُ وتأخر عن ميعاده

وبينما كان الكهل يسكن جأش الفتى ويخفّف عنهُ اثقال الهمّ والكدر واذا بالراهب تراءى عن بعد وحولهُ عشرون او ثلاثون قرويًا حاملين سلاحًا وفي وسطهم حاكم البلد فانَّ الراهب ما صاح بهم : « الوحى يا اهل الوحى » الَّا لبَّوهُ على الاثر . فلمَّا اجتمعوا بالكهل والفتى اقبلوا جميعًا الى فندق البغَّالين وسبق اليهِ مقدَّمة من القرويين دخلوهُ وطافوا فيهِ وهم على حذر من حدوث مكيدة . فرأوا ابواب الفندق مفتوحة فطافوهُ وبالغوا في التفتيش عن صاحبيهِ فلم يقفوا لهما على اثر وقد وجدوا الكلبة دارا تئن ممَّا اصابها من ضرب العصي وقد كُسر احد ساقيها فلم تقوَ على الحركة . فاختلفت الظنون بهما فقال بعضهم : هربا . وقال آخر : اختبأا وطفق كل واحد منهم يفتش عنهما في ناحية فوجدوا جميع الحُجَر مفتوحة ما خلا واحدة منها وهي التي بات فيها كاتب السجلات فدخل عليهِ القوم وهو مستغرق في النوم

فايقظوهُ فاستيقظ مذعورًا وظنَّ بادئ ذي بدء ان جماعة من اللصوص هجموا عليهِ ليقتلوهُ فقام على حيلهِ وصاح بهم : من انتم وماذا تطلبون

فقال الراهب: نحن لسنا الّا اصحابًا جئنا لانقاذك من خطرٍ عظيم كدتَ تقع فيهِ — وما هو ذلك الخطر العظيم الذي كدت ان اقع فيهِ يا ترى؟ لعمركم ايها الناس اصدقوني الخبر . . تكلّموا

فنهض حينئذٍ حاكم البلد وقادهُ الى الحجرة التي كانت جُهِّزت لميت الفتى فما رأى الجثة حتى رجع الى الوراء محوقلًا وقد عرف المذبوح فانهُ كان واحدًا من الباعة وكان هو رآهُ منذ يومين

فشرع حينئذٍ كاتب السجلات باجراء التحقيق عن الواقعة امام تلك الجماعة وكان يعقوب حاضرًا ايضًا فرفع تقريرًا مستوفي الشروط في هذا الشأن وقد اثرت فيهِ هذه الليلة الهائلة تأثيرًا لم يبرح من ذهنهِ طول حياتهِ وعلم العلم اليقين ان لله في خلقهِ آياتٍ وانهُ لولا عنايتهِ الالهيَّة لما خلص من مخالب الموت الذي اوشك ان يبطش بهِ

ثمَّ بعثوا بعض الرجال الى جهات مختلفة يتعقبون آثار الجاني وشركائهِ حتى اذا ادركوهم احضروهم الى دار الحكومة حتى ينالوا هناك جزاء ما جنَت ايديهم

امَّا الفتى فانهُ نال حظوةً في عيني كاتب السجلات فقرب هذا اليهِ وقال لهُ: ايها الفتى ان وظيفتي تقتضي ان يكون عندي فتى مساعد مثلك وقد اختبرتك البارح فنظرت فيك سمات الفهم والذكاء وآنست منك ظرفًا وادبًا فان شئتَ تشتغل هذا المحل عندي اكفل لك النجاح والترقي.

فرفع الفتى اكفَّهُ نحو السماء وقد اخذتهُ هزَّة الطرب والسرور فقال: انني لا اقدر ان اجيبك عن هذا الّا بعد مشورة والدتي ولست اظنُّها تأبى ذلك.

فقال: امهلك ثمانية ايَّام فيها تذهب وتقابل امك وبعدها تأتي اليَّ وانا امتعك بكل ما عندي من المال

قال واعطاهُ بعض الدنانير لقضاء حاجتهِ فرجع الفتى الى بيت امهِ فلمَّا رآها قصَّ عليها حوادثهُ وقلبها يتنازعهُ عاملا الخوف والفرح ثمَّ انكبَّ كلاهما على الارض يشكران الله تعالى ثمَّ قامت الأم وضمَّت ابنها الى صدرها وهي تذرف الدموع وقالت لهُ:

« اياك اياك يا بنيَّ ان تهمل منذ الآن صلاة العشي يومًا من حياتك » (تمت)